رحلة ابن بطوطة

بقلم
الدكتور محمد محمود الصياد
أستاذ الجغرافية ووكيل كلية البنات بجامعة عين شمس

— ١ —

كان المسلمون فى العصور الوسطى أكثر أهل الأرض جوباً للآفاق وتقلباً فى البلاد .

كان دينهم قد انتشر فى سرعة لم ينتشر بها دين من قبل ولا من بعد ، فشرق حتى بلغ الصين وغرب حتى انتهى إلى شواطئ بحر الظلمات .

وكان هذا الدين دين أخوة صادقة ، يجعل من المسلم أخاً للمسلم مهما اختلف العرق ، وتباين اللون ، وتباعدت الأوطان .

ولقد فقدت الدولة الإسلامية وحدتها السياسية ولما يمض على قيامها قرنان من الزمان ، ولكن بقيت روابط الدين واللغة والثقافة الجديدة توحد بين المسلمين فى مختلف الأقطار ، فظلوا أمة واحدة وإن حكمتها عديد من الحكومات .

لقد كانت الروابط التى خلقها الإسلام وحضارته أقوى من الشعوبية ومن كل نزعة إقليمية ، ولم تستطع تلك النزعات التى غرست بذورها الأسر الحاكمة خدمة لمصالحها الخاصة ، مستخدمة الوسائل المختلفة من ترغيب وترهيب ، أن تنزع من القلوب المؤمنة ما فطرت عليه من أخوة شاملة دعت إليها الشريعة السمحاء .

وكان الحج من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين إلى الرحلة والانتقال ، فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فريضة واجبة الأداء على المسلم ما لم يعقه عائق من ضعف صحة أو قلة مال ، وكان المسلمون فى مختلف أنحاء الأرض شعوباً وحكاماً ييسرون على إخوانهم الحجاج رحلتهم الطويلة لزيارة بيت الله ، وكم من مثر أوقف طائل الأموال لخدمة الحجاج ، وكم من حاكم أقام على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج ، وكم من سلطان رصد من جنده من يقوم على تأمين طريق الحج وحماية سالكيه .

وكان الحجاج يقصدون بيت الله من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ، وكانوا يتجمعون فى قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق بما ينضم إليها من وفود ، حتى يصبح فى النهاية للعراق حجيجه وللشام حجيجه ولأفريقية حاجها. وتسير القافلة فى ألفة ونظام وتعاطف شامل ، تحميها جنود الحكام ، ويرحب بها

سكان المدن والقرى فى معظم الأحيان ، ويزداد الترحيب كلما زاد فى القافلة عدد العلماء ورجال الدين .

ولم يكن الحج وحده هو الذى يدفع المسلمين إلى التجوال ، بل كانت التجارة كذلك من أهم بواعث الرحلات ، إذ بلغت تجارة المسلمين فى العصور الوسطى شأواً لم تبلغه تجارة أية أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الحديثة ، وكانت أساطيلهم التجارية تجوب كل البحار المعروفة آن ذاك ، وكانت طرق قوافلهم تربط بين أنحاء العالم المعروف ، ولم تقتصر تجارتهم على ديار الإسلام بل تجاوزتها إلى كل ركن معمور . وكان لديهم ما يتجرون فيه ، إذ كانت بلادهم تنتج الغلات المتنوعة ، وكانوا قد أصبحوا سادة الصناعة بمقاييس تلك العصور ، ومن ثم راحوا يحملون إنتاجهم من الفاكهة والتوابل والعطور والمنسوجات والسجاد والزجاج إلى البلاد الأوربية ، وإلى جنوبى الروسيا ، حيث يعودون من أسواقها بالجلود والفراء والصوف والدروع والسيوف ، فجمع تجارهم من وراء ذلك طائل الثروات .

وكان طلب العلم سبباً آخر لرحلة كثير من المسلمين ؛ وماذا ننتظر من قوم كان أول ما أوحى به إلى نبيهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ؟ وماذا نتوقع من ناس يحث نبيهم على طلب العلم ولو فى الصين ؟ وكان العالم الإسلامى غنياً بعلمائه الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر فى مختلف الفنون ، وكان من معايير الحكم على مستوى صاحب العلم عدد من لقى من العلماء وتتلمذ عليهم ، ويا له من معيار صادق الدلالة .

وفى ديار واسعة الأرجاء ، مزدهرة الحضارة كديار المسلمين ، كان لا بد من اتصال أمراء الأقاليم المختلفة بعضهم ببعض ، ولا بد من اتصالهم بغيرهم من حكام غير المسلمين ، ومن ثم كثرت السفارات وتعدد السفراء . وحسبنا أن نشير إلى رحلة يحيى بن عبد الحكم البكرى المشهور لجماله بالغزال إلى الدنيمرك مبعوثاً من قبل أمير قرطبة عبد الرحمن الثانى لمفاوضة النورمان ، ورحلة أحمد بن فضلان التى زار فيها بلاد البلغار سفيراً للخليفة العباسى المقتدر بالله .

لهذه الأسباب ولغيرها كثرت أسفار المسلمين وتعددت رحلاتهم . وقد وصلتنا أخبار بعض رحالتهم عن طريق الرواة ، ومن هؤلاء سلام الترجمان وابن وهب القرشى . ولكن معظمهم ترك لنا مذكرات عن رحلاته لا تزال تقرأ حتى اليوم للعلم وللمتعة معاً . ومنهم ابن فضلان ، والمسعودى ، وناصرى خسرو ، والإدريسى ، وابن جبير ، والهروى ، وأسامه بن منقذ ، وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم كثير .

وثمة واحد من الرحالة لا ينتمى إلى هذا الفريق أو ذاك ، فهو لم تتحدث عن أسفاره الرواة ، ولم يكتب هو بنفسه مذكرات عن أخباره ، وإنما أملاها على كاتب أمره أحد السلاطين « أن يضم أطراف ما أملاه (الشيخ) من ذلك ، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمداً إيضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدررها عند تجريده من الصدف » فصدع الكاتب بالأمر ، وراح يسجل أخبار رحالة أنفق من عمره ثمانية وعشرين عاماً لا يقر له قرار ، وهو يذرع الأرض بالطول والعرض حتى قطع فى أسفاره ما يربو على ١٢٠ ألف كيلو متر أو نحو ثلاثة أمثال محيط الكرة التى تعيش عليها . وهكذا دون محمد بن جزى الكلبى ، بأمر السلطان أبى عنان المرينى ، رحلة ابن بطوطة شيخ الرحالة المسلمين فانتهى من

كتابتهـا فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة هجرية (١٣٥٦ م) وسماها «تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار».

— ٢ —

ومن عجب أن يكون ابن بطوطة هو شيخ الجوابين ثم تخلو المصادر الأصيلة من ذكره، فلا نجد له فى كتب التراجم سيرة، ولا يتحدث عنه معاصروه إلا بما لا يروى غلة كما فعل «ابن خلدون»، وهو من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة مع أنه كان قد التقى به وسمع بأخبار رحلاته. ويحاول الباحث أن يترجم للرجل ترجمة تليق به فلا يجد تحت يديه من مصادر سوى رحلته، وهى وحدها لا تكفى لكتابة سيرة وتصنيف تاريخ.

ورحالتنا هو محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم، اللواتى قبيلة، الطنجى مولداً. وكنيته أبو عبدالله، ولقبه شمس الدين، واشتهر بابن بطوطة. وقبيلة لواتة التى ينتمى إليها قبيلة بربرية كبيرة تعرف فى لسان البربر باسم «ايلواتن»، وكانت بطونها تنتشر على طول الساحل الأفريقى من المحيط حتى ليبياً، وكان مولد أبى عبدالله فى مدينة طنجة ثغر المغرب على مدخل بحر الروم فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة (٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤ م) هكذا حـدث هو عن نفسه كاتب رحلته ابن جزى يوم التقى به فى مدينة غرناطة قبل أن يملى عليه رحلته بسنوات.

ولا نعرف شيئاً عن طفولة الرجل وصباه، ولا علم لنا بسيرة حياته إلا فى حدود ما يمكن أن نستخلصه من إشارات عابرات ترد على لسانه أحياناً وهو يروى قصة رحلاته، ولكن يبدو أنه كان عالماً وفقيهاً فهذا هو ما ينتظر من رجل ولد فى أسرة عرف عنها الاشتغال بالعلم؛ ثم يؤكده أن يعرف الحجاج له فضله فيقدمونه عليهم قاضياً وهو فى تونس، ثم يعمل بعد ذلك فى القضاء فى جزائر «ذيبة المهل» التى نعرفها فى وقتنا الحاضر باسم جزائر «ملديف»، وأغلب الظن أنه كان على مذهب مالك فهو المذهب الذى ساد فى المغرب العربى خلال العصور.

وكان ابن بطوطة رقيق المشاعر سريع التأثر، وتفيض صفحات قصته بكثير من المواقف العاطفية، فهو حين يترك والديه «تحمل لبعدهما وصبا، كما لقى من الفراق نصبا». وهو عندما وصل مدينة تونس، وبرز أهلها للقاء بعض كبار الشخصيات فى القافلة التى لحق بها «وأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم عليه أحد لعدم معرفته بهم، وجد من ذلك فى النفس ما لم يملك معه سوابق العبرة، واشتد بكاؤه حتى شعر بحاله بعض الحجاج فأقبل عليه بالسلام والإيناس...» ولما عاد من رحلته الأولى وعلم أن والدته قد ماتت حزن لذلك حزناً شديداً قطعه عن كل شىء وسارع إلى زيارة قبرها فى طنجة، ويظهر أن وقع المصيبة كان شديداً على نفسه فمرض ثلاثة أشهر قضاها فى سبته.

وابن بطوطة متعصب لوطنه الصغير، وكان المنتظر من رجل قضى أطيب سنى العمر متنقلا من بلد إلى بلد أن تكون الدنيا كلها وطنه، ولا ندرى هل كان الرجل يؤمن حقيقة بما يقول أم أنه أراد أن يداهن السلطان فراح يقص على مسامعه أن بلاده «الشريفة» هى أحسن البلدان «لأن الفواكه بها متيسرة، والمياه والأقوات غير متعذرة».

ولكن الرجل على فقه له وعلمه، يتميز بشىء غير قليل من البساطة، ربما تصل إلى السذاجة فى بعض

الأحيان ، فهو يصدق كثيراً من الأساطير التى لا يقبلها عقل ، ويعتقد فى صحة كرامات الدراويش التى رويت له ، أو التى جسمها له الوهم والخداع النفسى فراح يرويها على أنها حقائق شاهدها رأى العيان . وربما كان مرد ذلك إلى أن الرجل بحكم نشأته الدينية كان تقياً ورعاً ، يعظم الأتقياء والصالحين ، ويزور قبورهم للتبرك بهم ، وما سمع عن ولى من الأولياء إلا وهرع إلى لقائه ، يزوره ويسأله صالح الدعوات . وقد كانت هذه هى روح العصر فلا عجب أن يأخذ بها ابن بطوطه وأن يفعل ما يفعل مواطنوه .

وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يكن من أصحاب الأقلام ، فهو لم يترك أى إنتاج أدبى ، ولم يرد فى رحلته أو غيرها من المصادر أى ذكر لمؤلفات منسوبة إليه ، ولكنه حاول أن ينظم الشعر ، وما كنا لنعرف ذلك لولا أن أشار إليه هو نفسه ، وكل ما بين أيدينا من شعره سبعة أبيات هى مطلع قصيدة مدح بها السلطان محمد بن تغلق ملك الهند والسند وكان قد لجأ إليه يستعين به على قضاء بعض ديونه فأنشده :

إليك أمـــير المؤمنين المبجلا
أتينا نجـــد السير نحوك فى الفلا
فجئت محلا من عـــلائك زائرا
ومغناك كهف للزيارة أهـــلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة
لكنت لأعلاهـــا إماما مؤهلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذى
سجاياه حتما أن يقول ويفعـــلا
ملى حاجة من فيض جودك أرتجى
قضاها وقصدى عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم
فإن حياكم ذكره كان أجملا
فعجل لمن وانى محـــلك زائراً
قضا دينه ؛ إن الغريم تعجلا

وهذا نظم لا يرقى إلى مستوى الشعر ، ولكن السلطان الذى كان يجهل العربية طرب له وهو يستمع إلى ترجمته ، وأغلب الظن أن المترجم هو صاحب الفضل الأول فى طرب السلطان !

ولو كان ابن بطوطة من الأدباء لكتب على الأقل مذكرات منظمة عن رحلته ، ولما أمر السلطان أبو عنان المرينى كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة من عجائب رحلته ، بل كان الأقرب إلى المنطق أن يكلفه هو بكتابتها . ويشبه موقف ابن بطوطة موقف معاصره الرحالة البندقى ماركو بولو فهو بعد أن عاد من رحلاته الطويلة فى الشرق راح يحدث بأخبارها التى كان يستمع إليها القوم كأساطير ، وكان من الممكن أن تنسى هذه الأخبار مع الزمن لولا أن صادف وهو بسجنه فى جنوة كاتباً ذا مواهب أدبية أخذ يسجل رحلة ماركو بولو بإملائه ؛ ولو أن ابن بطوطة لم يحظ بما حظى به فى بلاط أبى عنان حتى أمر كاتبه بتسجيل أخبار الرحلة لكان من المحتمل أن تضيع ، ولما كان لابن بطوطة المكان الذى يحتله الآن فى تاريخ الرحلات .

لقد طوف ابن بطوطة بكل أرجاء العالم الإسلامى فى أفريقية وآسيا وأوربا ، وتعداه إلى غيره من بلاد المسيحيين والوثنيين فزار بلاد الروم والصين والهند وسيلان حتى أصبح كما وصفه ابن جزى « رحال العصر ، ومن قال رحال هذه الملة ، لم يبعد » .

وكان لا يزال فى تجواله حين جاءه فى مدينة « تكدا » أكبر مدن الطوارق فى السودان الغربى ، كتاب من السلطان أبى عنان يأمره بالوصول إلى حضرته العلية ، فامتثل للأمر ، وخرج من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة (١١ سبتمبر سنة ١٣٥٣) فوصل فاس فى أواخر ذى الحجة (يناير ١٣٥٤) . وكان قد نوف على الحادية والخمسين من العمر ؛ وبقى بها حتى اختاره الله إلى جواره فى سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) وله من العمر نحو ٧٤ سنة .

— ٣ —

وكما أغفل التاريخ اسم ابن بطوطة الشاب ، فقد تجاهل كذلك ذكر ابن بطوطة الشيخ ، وتركنا لا نعرف من أمره فى السنوات الثلاث والعشرين التى قضاها مستقراً فى فاس ، إلا أنه أقام فى حاشية السلطان « فغمره من إحسانه الجزيل ، وامتنانه الخفى الحفيل ، ما أنساه الماضى بالحال ، وأغناه عن طول الترحال » ، وأنه كان يحدث الناس بما رآه من عجائب الأسفار وهم يعجبون من ذلك فيصدقه بعضهم ويميل البعض إلى تكذيبه أو يشكون فى أحاديثه ، وكان ابن خلدون من هؤلاء المتشككين فيما يبدو ، فهو يروى فى مقدمته المشهورة أنه : « ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطه ، كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند . . . وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون . . . . فتناجى الناس بتكذيبه ، ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ، ففاوضته فى هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه ، فقال لى الوزير فارس : إياك أن تستنكر هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ، ومكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس ، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم ؛ قال وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها . فيقول يا أبت تراها مثل الفار ؟ فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار ! وكذا فى لحم الإبل والبقر ، إذ لم يعاين فى محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر » .

ويتخذ ابن خلدون من حديثه مع الوزير أساساً لوضع قاعدة من قواعد النقد الدقيق فيعقب بقوله : « وهذا كثيراً مما يعترى الناس فى الأخبار ، كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الإغراب . . . فليرجع الإنسان إلى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، ومستقيم فطرته ، فما دخل فى نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه ، وليس مرادنا الإمكان العقلى المطلق ، فإن نطاقه أوسع شئ ، فلا يفرض حداً بين الواقعات ؛ وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التى للشىء ، فانا إذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وصنفه ومقدار عظمة قوته ، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله ، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه . . . » . ولو كان ابن بطوطة قد نهج هذا المنهج الخلدونى السليم لخلت رحلته من الثغرات التى تنفذ منها سهام الطعن الموجه إليه ولكن السلطان أبا عنان كان معجباً بابن بطوطة

وبما يروى من أخبار بصرف النظر عن المنهج الذى تسير عليه ، ومن ثم « نفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الأخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها » .

وكان كاتب القصة — فيما يبدو — على شاكلة ابن خلدون ، لا يسلم بكل ما يملى عليه ، بيد أن من كان فى مثل وظيفته من حاشية السلطان لا يستطيع أن يجهر برأى ، ولكن عبارة فى المقدمة التى صدر بها الكتاب تنم على ما كان يعتمل فى خاطره إذ يقول : « وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار » ، ثم لا يلبث أن يعود فينصف ابن بطوطة ويقول : « على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج من عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط » ولا ندرى هل يؤمن بهذا حقاً أم أنها مجرد مجاملة للسلطان ! ؟

أما كاتب الرحلة هذا فهو محمد بن جزى الكلبى ؛ وقد ولد فى غرناطه ، والتحق بخدمة بنى نصر ، وترقى فى الوظائف حتى شغل منصب كاتب السلطان أبى الحجاج بن يوسف ، فلما اختلف معه هاجر إلى فاس ليشغل نفس المنصب فى بلاط السلطان أبى عنان المرينى ، وأصبح محل ثقته . وقد عهد إليه بكتابة أخبار ابن بطوطة فقضى فى ذلك ثلاثة أشهر ، يستمع إلى الرجل ويسجل ما يملى عليه منها « وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة » (ديسمبر ١٣٥٥ م) . ويظهر أن هذا التقييد كان مجرد مسودة للرحلة أعاد صياغتها فيما بعد « فكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة » (فبراير ١٣٥٦ م) أى أنه أنفق قرابة ثلاثة أشهر أخرى فى تبييض المسودة ووضعها فى صورتها النهائية .

ولا يدل أسلوب ابن جزى على أنه كان من الكتاب الموهوبين ، وهو كثيراً ما يعمد إلى السجع المتكلف . وإلى الإطناب حيث لا محل للإطناب ، وإلى تضمين أشعار الشعراء بلا مناسبة ودون أن تكون لها صلة بالموضوع . ولعل أسوأ ما فى الأمر أن يضمن كلامه فقرات يقتبسها من المؤلفين السابقين دون أن يشير إلى أسمائهم ، وكثيراً ما سطا على مواطنه ابن جبير فنقل من رحلته فصولا على نحو ما نرى فى وصف دمشق وحلب وبغداد وغيرها فأفسد بذلك الإطار العام لحديث ابن بطوطه القصصى المسترسل ، الفياض بالحيوية والخالى من الحشو والتكلف .

بيد أننا يجب أن نعترف بأن الرجل بذل غاية الجهد فى أن يخلق من أخبار ابن بطوطة عملا فنياً متماسكاً ، ولا شك أنه لقى فى ذلك كثيراً من العناء ، فابن بطوطة لم يكن جغرافياً يهتم بالمكان اهتمامه بمقابلة الأشخاص والتحدث عنهم . وهو لم يدون مذكرات عن أسفاره أو لعله دون شيئاً وضاع . فكان كل اعتماده فى إملاء أخبار رحلته على ما وعته ذاكرته ، وعسير مهما كان المرء من قوة الذاكرة أن يروى التفاصيل الكاملة لأحداث ربع قرن . ولهذا كانت أخبار الرجل قصصاً متفرقات . ولما كان ابن جزى لا يعرف شيئاً من أمر البلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة فليس غريباً أن يقع فى أخطاء وهو يحاول أن ينسج من أخبار محدثه قصة متكاملة البناء . وماذا يصنع ابن جزى وقد قطع

صاحبه على نفسه عهداً بألا يسلك طريقاً ما أكثر من مرة ، فكثرت أسماء الأماكن التى يذكرها واختلطت عليه مواقعها والمسافات التى تفصل بينها ؟ ! وماذا يصنع ابن جزى وصاحبه رجل يستمع إلى القصص التى يرويها المترجمون المحليون فيصدقها دون تحقيق أو تمحيص ؟ !

ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الاضطراب سبباً فى توجيه النقد إلى بعض أجزاء الرحلة ، وبخاصة ما يتعلق منها بوصفه للقسطنطينية وبزيارته للصين . وهو فى الأولى أخف وأيسر فمعظمه ينصب على اضطراب التواريخ ، غير أن هناك إجماعاً على أن الرجل قد وصف المدينة وصف شاهد عيان قوى الملاحظة ؛ ولكنه فى الأخرى أدهى وأمر حتى أن البعض لينكر أن يكون ابن بطوطة قد زار الصين أصلا ، ومن هؤلاء شيفير Schefer وفيران Ferrand ويول Yule وعندهم أن ما ذكره عن هذه البلاد إنما هو من قبيل التلفيق ، وهو زعم فيه كثير من التحامل . . حقاً إن وصف الرجل المفصل للصين فيه كثير من النقاط الغامضة ، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أن كل ما ذكره الرجل عن الصين إنما هو من نسج الخيال . ففيه فقرات معينة لا يمكن أن تصدر إلا عن معاينة مباشرة ، وكثير من أحاديثه تؤكده المصادر الصينية فيما يروى البحاثة اليابانى ياماموتو Yamamoto ، وتؤيده رحلة ماركوبولو الذى زار الصين من قبله ومكث فيها زهاء سبعة عشر عاماً ، ومات قبل أن يبدأ ابن بطوطة رحلته بعام واحد .

— ٤ —

ويشتمل كتاب « تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » على وصف للرحلات الثلاث التى قام بها ابن بطوطة .

والرحلة الأولى هى أهم الرحلات وأطولها ولذا فإن حديثها يستغرق معظم صفحات الكتاب وقد قضى فيها الرجل ما يقرب من ربع قرن ، إذ بدأها من طنجة مسقط رأسه « فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام » (١٤ يونيه ١٣٢٥ م) وأنهاها فى مدينة فاس التى وصل إليها « يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة » (نوفمبر ١٣٤٩) .

ولم يكن ابن بطوطة يوم أن خرج من طنجة يعرف أن الأقدار ستجعل منه جغرافياً رغم أنفه ، فقد خرج ينوى فريضة الحج فحسب ، ولم يدر فى خلده أن النوى ستقذف به إلى مختلف البلاد فلا يعود إلى وطنه إلا بعد سنين طوال . ومن السهل أن نتابع رحلته فى المغرب وفى مصر . فقد مر بالجزائر وتونس وليبيا ووصل الإسكندرية فى أول جمادى الأولى سنة ٧٢٦ هـ (٥ أبريل ١٣٢٦ م) أى أنه أنفق زهاء عشرة أشهر فى هذا الجزء القصير من رحلته ، تزوج فيها مرتين وطلق مرة واحدة . وفى الإسكندرية بدأ يفكر — وربما ليس لأول مرة — فى أن يتحول من حاج إلى رحالة محترف بعد أن لقى فيها « الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج » وأقام فى ضيافته ثلاث ليال . وكان هذا الشيخ هو الذى ألقى فى روعه التقلب فى البلاد وزيارة مختلف الأمصار ويروى ابن بطوطة قصة هذا الأمر فيقول :

« دخلت عليه يوماً ، فقال لى : أراك تحب السياحة فى البلاد ؟ فقلت له : نعم إنى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : لا بد لك من زيارة أخى فريد

الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكرياء بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا لقيتهم فأبلغهم منى السلام ، فعجبت من قوله وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم »

ومن الإسكندرية قصد القاهرة ، ولكنه لم يسلك الطريق المألوف للحجاج، بل راح يتنقل فى ريف مصر . ويوحى خط سيره فى الدلتا بأنه قد وضع الحج فعلا فى المقام الثانى ،وأخذ يهتم بزيارة المدن ومقابلة الأشخاص وبخاصة العلماء والأولياء . فهو يعرج على تروجه ودمنهور ثم يقصد فوة . ويعبر فرع رشيد إلى منية المرشد لزيارة شيخها أبى عبدالله المرشدى،وكان قد سمع به أيام إقامته فى الإسكندرية . وبينما هو نائم ذات ليلة يرى وكأنه « على جناح طائر عظيم يطير فى سمت القبلة ، يتيامن ، ثم يشرق ، ثم يذهب فى ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق ، وينزل فى أرض مظلمة خضراء » ويتركه بها ، فلما قص رؤياه على الشيخ المرشدى فسرها بأنه سوف يحج ويتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ويبقى بها مدة طويلة ، وسيلقى فيها أخاه دلشاد الهندى ! . . ترى هل تصدق الأحـــلام إلى هذا الحد فترسم خريطة لرحلة مستقبله تستغرق خمسة وعشرين عاماً ؟ ! أم هو الفتى الشاب أراد أن يبرر لنفسه تقاعسه عن السير المباشر إلى بيت الله الحرام فروى حديث الشيخين الأعرج والمرشدى ؟ !

ومن فوة سار رحالتنا إلى النحارية وابيار والمحلة الكبرى وملطين (بلطيم) ثم دمياط التى يصفها بأنها « على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل ، وشجر الموز بها كثير ، يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب ، وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ، ولهذا يقال فى دمياط : سورها حلوى ، وكلابها غنم : وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج إلا بطابع الوالى : فمن كان من الناس معتبراً طبع له فى قطعة كاغد ، يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به . والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهى السمن ، وبها الألبان الجاموسية التى لا مثيل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق ؛ وبهـــا الحوت البورى يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر » .

ومن دمياط يتجه إلى أشمون الرمان فسمنود ، حيث يركب النيل مصعداً إلى مصر ، وهو يخصها بحديث طويل يصف فيه مساجدها ومدارسها ومستشفياتها والقرافة والنيل والأهرام ، ويصف المدينة بأنها « تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها » وقد يبدو أن فى هذا الوصف الإنشائى مبالغة دفع إليها حب ابن بطوطة لمصر ، ولكن يؤيده ما ذكره الرحالة الإيطالى فرسكوبالدو Frescobaldo الذى زار القاهرة فى سنة ١٣٨٤ وذكر أن مئات الألوف من سكانها ينامون خارج المدينة لقلة المساكن فيها .

ومن القاهرة يتوجه مع الحاج الأفريقى إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ماراً بمدن الصعيد الكبري ، ولكن الحرب القائمة بين السلطان وقبائل البجاة تحول بينه وبين عبور البحر فيعود إلى القاهرة ليرحل منها إلى الشام فيزور « غزة أول بلاد الشام مما يلى مصر » ، فمدينة الخليل فالقدس ؛ ومن بعدها يضطرب حديث رحلته ، فلا نستطيع رسم خريطة لخط سيره . ويتحدث عن مدن الشام بلا ترتيب،وهى ظاهرة تتكرر فيما بعد . وكان من بين البلاد الشامية التى زارها صور وصيداء وطبرية وبيروت وطرابلس وحلب وبعلبك ، ثم دمشق التى يسهب فى وصفها وتعديد بعض فضائل أهلها

وعاداتهم ولا ينسى بين الحين والحين أن يطعم حديثه ببعض الطرف والحكايات .

وفى دمشق يترك زوجته ويخرج مع الركب الشامى قاصداً الحجاز ، سالكاً طريق الحج المألوف . وما كان له أن يفعل غير ذلك ، فظروف الصحراء الشاقة تحتم على سالكيها أن يلتزموا بدرب محدد وإلا تعرضوا للهلاك . . . وبعد رحلة طويلة وصل الركب مدينة الرسول فأقاموا بها أربعة أيام ، ثم خرجوا قاصدين مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج . ويصف ابن بطوطه المدينة المنورة ومعالمها ، والطريق إلى مكة وما به من آبار ومواضع ويتكلم فى إسهاب عن شعائر الحج وعن المسجد الحرام ثم يصف مكة المعظمة بأنها « مدينة كبيرة متصلة البنيان ، فى بطن واد تحف به الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها ، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ ... ولأهل مكة الفعال الجميلة ، والمكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والإيثار للضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء . . . ونساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب ، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً ، وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً . ولأهل مكة عادات حسنة فى الموسم وغيره » .

ويحقق ابن بطوطة الغرض الذى ترك من أجله طنجة وهو تأدية فريضة الحج ، ولكنه بدلا من أن يفكر فى العودة إلى وطنه كما يفعل معظم الحجاج ، يخرج من مكة فى العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٦ هـ (أكتوبر ١٣٢٦ م) مع الركب العراقى ، ولا يقصد إلى بغداد مباشرة كما كان ينتظر ، بل ينفصل عن الركب فى النجف ليزور واسط والبصرة والأبلة ، ويبدى عجبه من أن تصبح البصرة التى انتهت إليها زعامة النحو يوماً ما ، وقد فشا فيها الجهل بقواعد اللغة حتى لا يسلم من هذا خطيب الجمعة فيها .

ومن الأبلة يتجه إلى أطراف فارس ، فيزور تستر واصفهان وشيراز وكازرون ، ويكشف فى وصفه عن إعجاب عظيم بمظاهر الطبيعة ، بالإضافة إلى عنايته المعهودة بالناس ، وبأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ، وبحديثه عن العلماء والأولياء ومالهم من كرامات . ويضطرب حديثه عن زيارته لشيراز وهو يملى قصته ، فيخلط بين زيارته الأولى هذه وزيارته الثانية لها فى طريق عودته فى سنة ١٣٤٧ م . ثم يقفل عائداً إلى العراق فينزل بالكوفة ويسترعى نظره كثرة الشيعة فى جهاتها ، ثم يقصد بغداد التى فقدت الكثير من رونقها وعظمتها بسبب تخريب المغول لها ؛ وقد وافق وصوله إليها وجود أبى سعيد بهادور خان ملك العراقين وخراسان الذى أعجب بموكبه ونظامه .

وأقام ابن بطوطة فى العراق شهرين ، زار فيهما تبريز والموصل ونصيبين وماردين ثم عاد إلى بغداد ، فوجد الحاج العراقى على أهبة الرحيل فصحبه إلى مكة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثانية . ويظهر أن الأسفار المتواصلة كانت قد أجهدت الرجل فصح عزمه على أن يجاور بمكة ثلاث سنوات كاملة (٧٢٧ — ٧٣٠ هـ ؛ ١٣٢٧ — ١٣٣٠ م) حج فيها ثلاث مرات ، وشهد خلالها الفتنة التى وقعت بين أمير مكة « عطيفة » وبين آيدمور أمير جند الملك الناصر ؛ ثم خرج من مكة قاصداً بلاد اليمن فذهب إلى جدة ومنها ركب البحر لأول مرة فى حياته وكان متهيباً لركوبه . وبعد يومين

تغيرت الريح ،فصدت المركب عن السبيل التى قصدتها، وانتهت بها إلى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، فأرست عند رأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن ، فلما تحسن الجو ركب البحر من سواكن يريد أرض اليمن وهذا البحر « لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها » والواقع أن هذه المنطقة من ساحل البحر الأحمر تكثر فيها شعاب المرجان مما يعرض الملاحة للأخطار ما لم تتخذ الحيطة اللازمة . وبعد ستة أيام وصل إلى ميناء « حلى» فأكرمه سلطانها عامر بن ذؤيب وكان قد عرفه من قبل فى حج سنة ثلاثين .

وفى اليمن زار « زبيد » التى كانت المقر الشتوى للسلطان نور الدين على ، خامس سلاطين دولة بنى رسول . ثم يخرج منها قاصداً صنعاء قاعدة بلاد اليمن الأولى ، ويسترعى نظره « أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل فى أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان » ويعد هذا من الأمور الغريبة ، وهو أمر لا نستغربه من ابن بطوطة الذى ينتمى إلى حوض البحر المتوسط حيث لا يكون المطر إلا فى فصل الشتاء .

انحدر ابن بطوطة من صنعاء إلى « عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم » ويظهر أنه لم يعد يخشى البحر كما خشيه وهو يركبه فى جدة ، فقد سافر من عدن فى البحر أربعة أيام قاصداً ساحل أفريقية الشرقى فلما بلغ زيلع وجدها « أقذر مدينة فى المعمور ، وأوحشها وأكثرها نتناً » حتى لقد فضل أن « يبيت فى البحر على شدة هوله ولم يبت فيها لقذرها » ، وبعد رحلة بحرية استغرقت خمس عشرة ليلة وصل مقدشو ، والتقى بسلطانها أو شيخها كما يدعوه القوم ، ووصف مجلسه وكيفية الدخول عليه ، ثم ركب « البحر من مدينة مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج » والسواحل هو الاسم الذى أطلقه العرب على أفريقية الشرقية التى هى الآن كينيا وتنزانيا ، ومنه اشتق اسم اللغة السواحلية التى تسود الآن فى تلك الجهات :

وبعد زيارة سريعة لساحل شرقى أفريقية ، عاد رحالتنا إلى بلاد العرب . وأظنه كان قد أصبح مغرماً بركوب البحر ،فهو يركبه فى رحلة جديدة يطوف فيها السواحل الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية قبل أن يقصد مكة ليحج حجته الخامسة ، وكان أول نزوله « مدينة ظفار الحموض . . . آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى ، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند ، ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند ، مع مساعدة الريح ، فى شهر كامل . . . » ويرى أن « من العجائب أن دوابهم إنما علفها من السردين وكذلك غنمهم » وهو أمر لا يزال شائعاً حتى اليوم : ويصف ابن بطوطة سكان ظفار ويتحدث عن سكانها وتجارتها ويصف أشجارها ويوجه عناية خاصة إلى التانبول والنارجيل وهو جوز الهند ، « وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً ، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً ، وجوزها يشبه رأس ابن آدم ، لأن فيه شبه العينين والفم ، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء ، وعليها ليف يشبه الشعر ، وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد » .

ومن ظفار واصل صاحبنا رحلته إلى بلاد عمان ، ومنها سافر إلى هرمز وسيراف ووصف مغاص اللؤلؤ فيما بين سيراف والبحرين . ثم عبر الخليج العربى إلى

القطيف ، وانحدر إلى هجر فاليمامة التى صحب أميرها برسم الحج ، وأدى الفريضة للمرة السادسة سنة ٧٣٢ هـ فلما انتهى الحج عزم على السفر إلى اليمن والهند . فتوجه إلى جدة ، ومكث فيها أربعين يوماً ينتظر مركباً تحمله ، فلما لم يوفق أخذ مركباً برسم عيذاب ، وانتهى به المطاف إلى مصر ، فلم يقم فيها طويلا وتركها قاصداً بلاد الشام ، ومنها سافر إلى « بر التركية » بطريق البحر ، وكانت العلايا أول مدينة ينزل بها ، ثم زار معظم المدن الكبرى فى آسيا الصغرى مثل أنطالية (أضاليه) وقونية وأقصرا وسيواس وأيا سلوق (افيســوس) ويزمير (أزمير) ومغنيسية (منيسه) وبرصا وقصطمونية وانتهى إلى ميناء صنوب (سينوب) على البحر الأسود . وخط سير الرجل فى هذه الأنحاء يعتوره خلط شديد حتى ليتعذر تحقيقه . ولكن ابن بطوطة من ناحية أخرى يعطى صورة واضحة للدولة العثمانية فى دور نشأتها ، إذ يصف الامارات والدويلات التركية المتعددة قبل أن يجمعها العثمانيون فى دولة واحدة .

وبعد أن أقام فى صنوب أربعين يوماً عبر البحر الأسود إلى شبه جزيرة القرم ، فنزل فى مدينة الكفا (فيودوسيا) وكانت تابعة لجمهورية جنوة وبها أكبر سوق للرقيق المملوكى فى العصور الوسطى ، وفيها سمع ابن بطوطة صوت نواقيس الكنائس لأول مرة فى حياته . ثم اكترى عجلة وسافر إلى مدينة القرم فقضى فيها أياماً تركها بعدها إلى مدينة أزاق (آزوف) فبلدة الماجر بالقوقاز ، وفيها تجهز قاصداً معسكر السلطان محمد أوزبك ، خان مغول القبيلة الذهبية ، وكان ينزل على مسيرة أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له « بش دغ »

ويتحدث ابن بطوطة عن مثوله فى حضرة السلطان ، وعن زوجاته الأربع وترتيبهن فى السفر معه ، وعن بنته وولديه ؛ ويسمع عن مدينة البلغار فيتوجه إليها ليرى « ماذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضاً ، فى عكس ذلك الفصل » . وفيها يفكر فى السفر إلى أرض الظلمة (سيبريا) ثم يضرب عن ذلك لعظيم المؤنة ، وقلة الجدوى ، ويعود من مدينة البلغار إلى معسكر الخان فى بش دغ حيث يقضى أيام عيد الفطر ، ويصف عادات القوم فيه ؛ ثم يرحل مع السلطان إلى مدينة الحاج ترخان (استراخان) وفيها ترغب الزوجة الثالثة للسلطان وهى بيلون بنت ملك الروم اندرونيكوس الثالث أن تزور أباها لتضع حملها عنده ، ويستأذن ابن بطوطة فى أن يصحبها إلى القسنطينية ، فيؤذن له ، ويسير فى ركبها . ولا نعرف على وجه التحقيق الطريق الذى سلكه الموكب عبر البلقان لغموض أسماء كثير من المدن التى يذكرها ابن بطوطة .

وفى القسطنطينية صح عزم الخاتون على ألا تعود لزوجها ، وكان قد مضى على مقامها شهر وستة أيام ، ومن ثم قفل ابن بطوطة عائداً إلى عاصمة السلطان أوزبك فى مدينة السرا على نهر الفلجا ، ومنها عبر النهر وسار إلى خوارزم « أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها » ثم غادرها إلى بخارى وسمرقند وترمذ وبلخ وغزنة وكابل ووصل إلى السند المعروف ببنج آب بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربع وثلاثين وسبعمائة (١٢ سبتمبر ١٣٣٣ م) . وبهذا ينتهى الجزء الأول من الكتاب .

— ٥ —

كان قد مضى على ابن بطوطة يوم أن دخل الهند نحو تسعة أعوام منذ مغادرته مسقط رأسه طنجة . وفى الهند أقام تسعة أعوام أخرى ، فقد تركها قاصداً الصين

فى السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (٢٢ يوليـــه ١٣٤٢ م) فلا غـــرابة إذن أن يخص الهند بالنصف الأول من الجزء الثانى ، خاصة وأنه لقى الحظوة لدى السلطان محمد بن تغلق الذى عينه فى منصب القضاء بدهلى لمدة خمس سنوات .

ويفيض ابن بطوطه فى وصفه لبلاط السلطان ، ومراسيم احتفالاته ، واستقباله للملوك والأمراء . ويقص الحكايات عن تواضعه وإنصافه ، واشتداده فى إقامة أحكام الشرع ، ورفعه للمغارم والمظالم . ولكنه فى الوقت نفسه لا يغفل فتكات هذا السلطان، وما نقم من أفعاله. ولا ينسى ابن بطوطه أن يشبع هوايته الخاصة فى الحديث عن الناس وحياتهم وعاداتهم ، فيتحدث عن أشجار الهند وفواكهها ، والحبوب التى يزرعها الهنود ويقتاتون بها ، وعن عاداتهم فى حرق أنفسهم بالنار ، وعن نهر الكنج المقدس ورماد الجثث المحرقة، وعن السحرة الذين يدعون « بالجوكية ». ويتسم حديثه عن هذه الأمور بالصدق والبساطة .

ويرى السلطان أن يبعث بهدية إلى ملك الصين ، فلا يرى خيراً من ابن بطوطه ليرأس الوفد الذاهب إلى الصين ، لما يعرفه فيه من حب الأسفار والرحلات . ولا يكاد الوفد يصل مدينة كول (عليكرة) حتى يشترك فى حرب ضد الهنادك ؛ ويستشهد بعض أعضائه ويقع ابن بطوطة فى أسر جماعة منهم يسلبونه كل متاعه ، ولكنه لا يلبث أن ينجو من الأسر « على يد ولى من أولياء الله » . ويلحق برفاقه فيجدهم قد تشاءموا من السفر وعزموا على الرجوع ، غير أنه يقنعهم بمواصلة السير إلى قندهار . وبعدها يركب الوفد البحر ، فيمر بساحل الفلفل (ساحل مليبار) حتى ينتهى إلى قاليقوط وكانت مجمع سفن أهل الصين وجاوة وسيلان وايران وغيرها . ويجهز لهم سلطانها مركباً تحملهم إلى الصين ، ويكون من حسن حظ ابن بطوطة ألا تعجبه « الكابين » المخصصة له فيبقى ليلته على الساحل ليستقل مركباً أخرى نقل إليها متاعه ، ولكن الريح العاتية تقلب المركب التى رفض النزول بها فيموت ركابها ويبتلع البحر هدية السلطان ، وتهرب المركب الأخرى التى كان مفروضاً أن يركبها وفيها كل متاعه وغلمانه وجواريه ، وتتركه منفرداً على الساحل لا يملك سوى سجادة صغيرة وبضعة دنانير .

كان هذا الحادث كفيلا بأن يفل من عزم ابن بطوطه ، ويصرفه عن مواصلة السفر إلى الصين ، خصوصاً وقد انتفى الغرض منها بضياع هدية السلطان ، ولكنه يمكث بساحل مليبار شهوراً يسافر بعدها إلى جزائر ذيبة المهل (جزائر الملديف) ، ويبسم له الحظ فيها ، فيتولى منصب القضاء ، ويتزوج بأربعة نسوة احداهن ربيبة سلطانة الجزائر ، ويحدثنا الرجل حديثاً ممتعاً عن الجزائر ، وعن سكانها وأعمالهم ، وعن مساكنهم وعاداتهم ، وعن الملكة التى تحكمهم ويذكر سبب إسلامهم فى قصة أقرب إلى الخرافة .

ويتشدد القاضى ابن بطوطة فى تنفيذ أحكام الشرع فيوغر صدور بعض الناس ، ويضطر فى النهاية إلى أن يترك الجزائر بعد إقامة سنة ونصف سنة إلى جزيرة سيلان ثم إلى ساحل كرومندل وإقليم بنغاله فشبه جزيرة الملايو وأندونيسيا حتى ينتهى إلى ميناء الزيتون (تشوان شوفو) فى الصين ، ثم يزور بعض المدن الصينية القريبة من الساحل مثل الخنسا (هانج — تشو) وهى فى نظره أكبر مدينة رآها على سطح الأرض ، وخان بالق (بكين) وهى عاصمة القان « الذي مملكته بلاد الصين والخطا » ولكنه لا يلقاه لتغيبه عن العاصمة .

ويفيض ابن بطوطة فى وصف ما رآه من أحوال أهل الصين وفنونهم وما خصوا به من أحكام الصناعات ويتحدث عن الفخار الصينى ، وعن التراب الذى يوقدونه مكان الفحم ، وعن عادتهم فى تقييد ما فى المراكب ، وفى منع التجار من الفساد ، وحفظهم للمسافرين فى الطريق ؛ وعن نظام التأمين الاجتماعى الذى وضعوه لحماية العجزة والشيوخ والأيتام والأرامل، وعن العملة الورقية التى يستخدمونها فى البيع والشراء : « فأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . . . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها بمقدار الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان ، حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك ، ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان » .

ولا يطيب عيش ابن بطوطة وقد وصل « خان بالق » عاصمة الصين ، إذ تقوم فيها الفتن ، وينتهى أمرها بمقتل القان ؛ ويضطر الرجل إلى مغادرة المدينة على عجل عائداً إلى الزيتون ، حيث وجد سفينة حملته إلى سومطرة ومنها إلى ساحل مليبار . ولا يعود الرجل إلى دلهى ليلقى سلطانها صاحب الرسالة التى لم تصل والهدية التى ابتلعها البحر ، بل يسافر إلى هرمز ومنها إلى العراق فالشام فمصر ، ويقضى فى القاهرة حيناً ثم يسافر إلى مكة ليحج حجته السابعة والأخيرة فيصلها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين (١٦ نوفمبر ١٣٤٨ م) . فلما انتهى الحج عاد مع الركب الشامى إلى غزة ثم القاهرة ، وفيها علم « أن مولانا أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، أبا عنان قد ضم الله به نشر الدولة المرينية ، وشفى بركته بعد إشفائها ، البلاد المغربية ، وأفاض الاحسان على الخاص والعام ، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام ، فتشوفت النفوس إلى المثول ببابه ، وأملت لثم ركابه ، فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية ، مع ما شفنى من تذكار الأوطان ، والحنين إلى الأهل والخلان ، والمحبة لبلادى التى لها الفضل عندى على البلدان » .

ويبحر الرجل من مصر إلى تونس فى صفر سنة ٧٥٠ هـ (مايو ١٣٤٩ م) ويقيم فترة لدى أحد أقاربه فيها ؛ وبدلا من أن يوصل سفره إلى بلاده بطريق البر يركب البحر إلى جزيرة سردينية ثم يعود بها إلى مستغانم بالساحل الجزائرى ثم يقصد فاس ، فيصلها فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمايه (نوفمبر ١٣٤٩ م) ويمثل بين يدي سلطانها أبى عنان ، الذى شمله بعطفه ، وغمره بإحسانه .

— ٦ —

ولا يستقر ابن بطوطة طويلا فى فاس ، بل يقوم برحلته الثانية إلى الأندلس ليكون له « حظ من الجهاد والرباط » فيما يقول ، فقد كان المسلمون فيها يعانون أخطر مرحلة فى تاريخهم بعد أن ضاع معظم ملكهم . ويقضى الرجل فى رحلته هذه شهوراً من عامى ٧٥١ ، ٧٥٢ هـ (١٣٥٠ — ١٣٥١ م) يتنقل فيها من بلد إلى بلد ، فيزور رنده ومربلة ومالقه وبلش Velez وغرناطه وملكها إذ ذاك أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل من ملوك بنى نصر ، وفيها التقى بابن جزى الذى شاء له القدر أن يكون كاتب رحلته بعد ذلك بخمس سنوات ومن غرناطة يعود الرجل إلى فاس بطريق مراكش ومكناسة ، ويظهر أنه لم يكن يقصد الجهاد كما زعم ،

وإلا لامتدت إقامته فى الأندلس ، ولاستقر فى قلعة من القلاع مع المرابطين ، وإنما هى زيارة خاطفة أشبه بزيارات السائحين فى هذه الأيام .

وحديث ابن بطوطة عن رحلته الأندلسية مقتضب بعكس حديثه عن الرحلة الأولى، ولعل مرد ذلك إلى أن أهل المغرب كانوا يعرفون عن الأندلس الشيء الكثير، فلم يكن لدى رحالتنا جديد يرويه . ولا يتحدث الرجل حديثاً ذاتياً كما كان يفعل وهو يقص أخبار أسفاره فى المشرق بل يتحدث عن جبل الفتح (جبل طارق) وما أقامه فيه أبو الحسن وأبو عنان من تحصينات .

وكانت رحلة ابن بطوطة الثالثة والأخيرة إلى بلاد السودان الغربى ، وكأنما أراد ألا يلقى عصا التسيار إلا بعد أن يزور كل بلاد المسلمين ، واستغرقت هذه الرحلة عامى ٧٥٣ ، ٧٥٤ هـ (١٣٥٢ — ١٣٥٣ م) وكان ابن بطوطة أول من جاب الصحراء الأفريقية الكبرى ووصف مشاهداته فيها . وقد خرج الرجل من سجلماسة فى غرة محرم سنة ثلاث وخمسين فى رفقة قافلة مرت ببلدة تغازا ثم تاسرهلا التى أرسلت منها تكشيفا (كشافاً) ليستطلع الطريق ، وليعد لإقامتها فى ايوالاتن أول أقاليم مملكة السودان ، وقد وصلتها القافلة بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة ، ويعجب ابن بطوطة من سكانها الذين لهم فعال لا تتفق وإسلامهم « فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ، ولا ينسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب إلى خاله ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه . . . . وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن ، مع مواظبتهن على الصلوات ، ومن أراد التزوج منهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها » ويروى قصتين طريفتين يؤيد بهما كلامه .

ومن ايوالاتن يتجه لزيارة مملكة مالى التى خلفت مملكة غانة وامتدت حدودها على النيجر حتى « جاو » ، ويبلغ مدينة كارسخو على النيجر الذى يحسبه نهر النيل ؛ وقد ظل كل الرحالة يعتقدون ذلك حتى أثبت مانجو بارك فى سنة ١٧٩٥ م أن لا صلة بين النهرين . وأخيراً يصل رحالتنا إلى مدينة مالى نفسها ، حاضرة ملك السودان وهو كعادته يتحدث فى روايته عن السلطان ، وعن سكان المملكة وعاداتهم وطباعهم ، وما يستحسنه من أفعالهم ، وما يستقبحه منها ، ويصف شجر الباوباب الضخم الذي يستخدمه القوم لخزن مياه المطر ، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى اليوم ، ويتحدث عن الخيل التى تكون فى النيل ، ويقصد بها أفراس النهر ، ثم ينتهى إلى « تنبكتو » ويلتقى فيها بجماعة من المصريين يكرمون وفادته ، ويواصل سيره إلى تكدا ، وفيها يجيئه أمر السلطان بالعودة إلى فاس .

— ٧ —

ويطوى النسيان رحلة ابن بطوطه ، فهى لم تكن من النثر الفنى الذى يتوارثه المشتغلون بالأدب العربى عبر القرون ؛ ومع أنها حفلت بالحكايات والقصص والأساطير التى تعطى صوراً للمجتمع الذى عاش فيه ابن بطوطه والتى قد تستهوى الناس ، فلم يكن لها حظ من الرواج والذيوع فى القرون التالية ، وأغفلها الكتاب الذين جاءوا من بعده إغفالا تاماً ، فلا إشارة إليها ، ولا اقتباس منها كما كانت العادة مع أمثالها من المصنفات

ويختصر الرحلة فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) كاتب يدعى البيلونى ، فلا يكون المختصر بأحسن حظاً من النص الكامل ، فينسى هو كذلك كما نسى الأصل من قبل، ولكنه يكون بعد

قرن من الزمان الخيط الذى يهدى إلى الرحلة ويدل عليها ، فقد عثر على مخطوطات موجز البيلونى اثنان من رحالة الربع الأول من القرن التاسع عشر هما زيتسن Seetzen الألمانى وبوركهارت Burckhardt البريطانى ونقلاها إلى مكتبتى جوتا وكمبردج ، فكان هذا هو بداية اهتمام أوربا بابن بطوطه ورحلته، ومن عجب أن يظل العرب على جهل ببضاعتهم حتى تكتشفها أوربا ، ثم لا يسارعون باستردادها إلا بعد سنين طوال .

عرفت أوربا إذن رحلة ابن بطوطة ممثلة فى الموجز الذى كتبه البيلونى ، وكان المستشرق كورجارتن Kosegarten أسبق العلماء الأوربيين عناية بها ، فدرسها دراسة تحليلية نشرها فى سنة ١٨١٨ م ومعها ترجمة باللاتينية لثلاث مقتطفات منها أعطاها عناوين الرحلة الفارسية Iter Persicum والرحلة الملديفية Iter Maldivicum والرحلة الأفريقية Iter Africanum ثم جاء من بعده تلميذه ابتز Apetz فدرس وصف ابن بطوطة لساحل مليبار ونشر دراسته فى سنة ١٨١٩ م .

وفى سنة ١٨٢٩ نشر القس صموئيل لى Rev. Samuel Lee فى لندن أول ترجمة كاملة لموجز الرحلة باللغة الإنجليزية .

وبعد أن تم للفرنسيين الاستيلاء على مدينة قسنطينه الجزائرية ، عثروا على خمس مخطوطات من رحلة ابن بطوطة ، وكان بعض أجزائها بخط ابن جزى نفسه ، وكان من بين المخطوطات اثنتان كاملتان . ونقلت هذه المخطوطات بالطبع إلى المكتبة الأهلية بباريس ، وعنى اثنان من العلماء الفرنسيين هما دفريمرى Defrémery وسانجينتى Sanguinitti بدراستها ، ومقابلة النسخ بعضها ببعض ، ومقارنة نصوصها ، وتمكنا فى النهاية من طبع الرحلة كاملة مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية ومقدمة علمية تحليلية طويلة . ونشرت رحلة ابن بطوطة كاملة فى باريس لأول مرة فى أربعة أجزاء فيما بين سنتى ١٨٥٣ ، ١٨٥٨ م . ولا تزال هذه الطبعة الباريسية هى أهم طبعات رحلة ابن بطوطة حتى يومنا هذا ، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة .

وعن هذه الطبعة الباريسية طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عربيتين كل منهما فى مجلدين ؛ وظهرت الطبعة الأولى فيما بين عامى ١٨٧١ ، ١٨٧٥ م أى بعد نحو عشرين سنة من ظهور الطبعة الفرنسية ، ثم ظهرت الطبعة الأخرى فى سنة ١٩٠٤ . ومن أسف أن الذين نشروا الطبعتين العربيتين لم يحفلوا بالحواشى والتعليقات التى كتبها العالمان الفرنسيان ، ولم يفكروا فى نقل المقدمة الوافية التى صدرا بها الكتاب ، واكتفوا بنشر النص العربى دون حاشية أو تعليق .

وكان لظهور الجزء الأول من الطبعة الباريسية فى سنة ١٨٥٣ صداه فى الأوساط العلمية ، مما أثار اهتمام العالم الفرنسى ارنيست رينان (١٨٢٣ — ١٨٩٢) فكتب عن ابن بطوطه ورحلته دراسة قيمة . وبدأ يعنى بالرحلة كثير من الكتاب ، يدرسونها ويترجمون أجزاء منها إلى مختلف اللغات ومنهم كولى Cooley وديفك Devic وديلافوس Delafosse وفيران Ferrand ويول Yule وكورديه Cordier وكان الأتراك من أسبق الناس اهتماماً بهذا الأمر ، إذ كانت بلادهم مما اهتم به ابن بطوطة فى رحلته ، وبدأ هذا الاهتمام بمجرد ظهور الطبعة الباريسية كاملة ، ومن ثم شرعت صحيفة « تقويم وقايع » تنشر الرحلة فى فصول مسلسلة منذ سنة ١٨٦١ ، ثم ظهرت ترجمة تركية كاملة للرحلة فى ثلاثة مجلدات من وضع الداماد محمد شريف فيما بين سنتى ١٨٩٧ ، ١٩٠١ .

وفى سنة ١٩١٢ نشر مزيك الجزء الخاص بالهند والصين فى همبرج مترجما إلى الألمانية . وفى سنة ١٩٢٧ أخرج الأستاذ فؤاد افرام البستانى فى بيروت مختارات من الرحلة فى ثلاثة كتيبات . وكان الأستاذ ه . جب H. Gibb ممن اهتموا برحلة ابن بطوطة فنشر فى لندن سنة ١٩٢٩ مختصراً لها بالإنجليزية مزوداً بكثير من الحواشى العلمية الضرورية ، وذكر فى مقدمته التحليلية الوافية أنه يزمع ترجمة الرحلة كاملة، وقد صدق وعده فشرع منذ سنة ١٩٥٨ يترجم الرحلة معتمداً على طبعة ديفريمري وسانجتى الباريسية ، ونشر منها حتى الآن جزأين مزودين بالحواشى والخرائط وبعض الصور .

وفى سنة ١٩٣٤ نشرت وزارة (المعارف) المصرية مختارات من الرحلة تحت عنوان « مهذب رحلة ابن بطوطة »قام على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه اثنان من كبار رجالها هما الأستاذ أحمد العوامرى والأستاذ محمد أحمد جاد المولى ولم يهتم الرجلان بأكثر من ضبط الأعلام وشرح بعض الألفاظ ، ولكنهما أضافا إلى طبعتهما بعض الخرائط الجيدة التى رسمها وحققها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافية فى كلية دار العلوم . وقد ظل مهذب رحلة ابن بطوطه لعدة سنوات من كتب المطالعة المقررة على طلبة المدارس الثانوية .

وكان آخر ما ظهر من ترجمات رحلة ابن بطوطه ترجمة مجرية نشرها ايفان هرباك فى براغ سنة ١٩٦١ وأخرى إيطالية نشرها جبرييلى فى فلورنسا فى نفس السنة .

وإذا كان هذا هو اهتمام الأجانب برحلة ابن بطوطه ، فان من حقنا أن نهيب بالمسئولين عن حماية تراثنا العربى ونشره أن يوجهوا عنايتهم إلى هذه الرحلة، وأن تظهر فى القريب طبعة عربية جديدة محققة مشروحة فنحن أولى الناس بهذا العمل ، وأظننا فى نهضتنا الفكرية الحاضرة من أقدرهم عليه .